عرض كتاب

حكاية حربين
الحرب الصحيحة والحرب الخاطئة في العراق(*)

ترجمة
سميرة ابراهيم عبد الرحمن(**)

تأليف: ريتشارد هاس
عرض: زبيغنيو بريجنسكي

تحمل رواية ريتشارد هاس المتسمة بالتبصر عن كثب لعملية صنع السياسة التي قادت الى حربيّ العراق – حرب الضرورة وحرب الاختيار – دروساً أساسية للقيادة الاميركية (المستقبلية) في الشرق الاوسط وما بعده.

شغل زبيغنيو بريجنسكي منصب مستشار الامن القومي الاميركي للمدة من ١٩٧٧ وحتى ١٩٨١. يحمل اخر كتاب صدر له عنوان "الفرصة الثانية :ثلاثة رؤساء وأزمة القوة العظمى الاميركية" **.

ان كتاب حرب الضرورة وحرب الاختيار الذي هو في جزء منه دراسة في التاريخ الحديث، وفي جزء اخر مذكرات شخصية ثرية، ودراسة في عملية صنع القرار، يستحق قراءة متأنية ودقيقة . والامر لا يعزى الى ان ريتشارد هاس له اوراق اعتماد مؤثرة في السياسة الاميركية– إذ كان مسؤولاً رفيع المستوى في السياسة الخارجية ويشغل حالياً منصب رئيس مجلس العلاقات الخارجية– أو انه يقدم رواية تتسم بالتبصر عن كثب للمشاورات التي كانت تجري على أعلى مستوى في الحكومة الاميركية والتي تسببت في غضون اثنى عشر عاماً في تورط الولايات المتحدة في حربين مع العراق فحسب، بل لان اهمية الكتاب التي راح يضيفها تكمن في انه يقدم درساً كبيراً ينبغي على وزير الخارجية الاميركي ومستشار الامن القومي الاميركي (المستقبليين)*** ان يستنبطاه من اجل السياسة الاميركية في الشرق الاوسط.

(*) **عرض الكتاب المنشور على موقع مجلة الفورين افيرز (Foreign Affairs) على الانترنيت (شبكة المعلومات الدولية في عددها الصادر في**

(**) **مركز الدراسات الدولية جامعة بغداد**

** صدر لزبيغنيو بريجنسكي مقالاً حمل عنوان " أجندة للناتو" في مجلة الفورين افيرز في عددها الصادر في ايلول/تشرين الاول ٢٠٠٩ يتناول فيها ما ستقدمه منظمة حلف شمال الاطلسي (الناتو) بعد ان وحدت الغرب، وحققت الآمن لاوروبا ، وانهت الحرب الباردة خلال مسي رتها التي استغرقت ستين عاماً. سيقدم المركز ترجمة للمقال في عدد المجلة القادم.(المترجمة)

*** وقت نشر الكتاب ايار ٢٠٠٩ ولكن وقت كتابته جرت قبل تولي ادارة اوباما الحكم في الولايات المتحدة الاميركية.(المترجمة)

شارك هاس في قرار خوض غمار حرب ١٩٩١ ضد العراق بصفته عضواً كبيراً في مجلس الامن القومي عن الشرق الاوسط. في ذلك الدور، عكف على تقديم المساعدة الى مستشار الامن القومي في حينه، برينت سكوكروفت في تعريف احتلال صدام حسين المفاجئ للكويت على انه عمل عدواني يهدد استقرار الشرق الاوسط وبقاء النظام الموالي للولايات المتحدة في السعودية . ويلقي هاس الضوء على ان الرئيس جورج بوش الاب كانت لديه هذه النظرة منذ ا ليوم الاول للاحتلال. ولعلل من المفيد القول ان بوش الاب وسكوكروفت هما بطلا هذه المذكرات.

وكما يروي هاس فان الامر الحساس في الرد الاميركي تمثل في حقيقة ان واشنطن اخذت على عاتقها حملة دبلوماسية منظمة لحشد الدعم الدولي لاقناع صدام حسين في الانسحاب واجباره اخيراً بالقوة لفعل ذلك. في النهاية، وحينما أُستخدت القوة، فان الحملة العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة شملت مساهمات مهمة جاءت من البلدان الاوروبية ودول عربية ومسلمة مهمة جغرافياً؛ بل وحتى ان سورية قد ادلت بدلوها.

تركزت الحملة العسكرية نفسها – حرب الضرورة– على هدف استراتيجي محدد بوضوح يتمثل في تدمير القدرة العسكرية لصدام حسين، واخراج العراق من الكويت . ولا جرم في القول ان كلا الهدفين كانا واضحين سلفاً وانهما قابلان للتحقيق . وقد تحققا فعلاً . ولم يكن اياً منهما تسوقه وتحركه دوافع خارجية. وعكست السياسة نفسها حساباً مدروساً عن التكاليف الباهضة في حال عدم القيام بفعلٍ، مقابل تكاليف محددة جداً جراء فعل عسكري مركّز بوضوح . ومن الجدير بالملاحظة هنا انه قبل تصادم ١٩٩١ كانت الولايات المتحدة تدعم العراق سراً في حربه ضد ايران بحيث لم تعارض، كما يسرد هاس، استخدام العراق للاسلحة الكيمياوية ضد ايران . وان هاس نفسه فضل توسيع العلاقة الاميركية مع العراق . باختصار، فان الواقعية الصرفة كان لها القدح المُعلى في السياسة الاميركية حينذاك.

حربٌ عادلة واخرى غير عادلة

لا مراء في ان هاس، كما يصف نفسه، كان لاعباً هامشياً في عملية اتخاذ القرارات التي أفضت الى الحرب الثانية(٢٠٠٣) والتي جرت بعد مضي ما يربو على العقد من الزمان بقليل . في ذلك الحين، كان مديراً لمكتب تخطيط السياسة في وزارة الخارجية في عهد الوزير كولن باول. وعلى مر السنوات، انحسر تأثير مكتب تخطيط السياسة . ففي الوقت الذي تسلم فيه هاس هذا المنصب انحصرت مسؤوليته بين كتابة خطابات وزير الخارجية وبين تقديم التوصيات حول مبادرات سياسات خاصة. بيد انها لم تصل مرة اخرى الى الوضع المُبجل الذي رافق فعلاً بلورة الاستراتيجية الاميركية

الكبرى مثلما حدث في عهد ادارة جورج كينان لمكتب تخطيط السياسة في مطلع الحرب الباردة.

بل حتى ان باول نفسه لم يكن من الشخصيات الرئيسة في المجموعة الصغيرة من المسئولين الذين استشارهم الرئيس جورج بوش الابن بعد احداث الحادي عشر من ايلول / سبتمبر بشأن صدام حسين واسلحة الدمار الشامل المزعومة. ووفقاً لهاس، فانه بحلول تمو ز/يوليو ٢٠٠٢، قرر الرئيس بوش الابن – مدفوعاً بديناميكية " حربٍ على الارهاب " – خوض غمار حربٍ ضد صدام حسين مهما كلف الامر . واتخذت كوندوليزا رايس، حينما خدمت بصفتها مستشارة الامن القومي، من هاس موقفاً عدائياً حينما قطعت النظر عن شكوكه وهواجسه بشأن الاندفاع فـي خوض اوار حربٍ ضد العراق. وراحت تشير بحزمٍ الى ان قضية الحرب أو السلام لا مجال للجدل فيها.

وبيات واضحاً كثيراً الان .. ورواية هاس تقدم تأكيداً قوياً على ذلك.. بان "حرب الاختيار" لم تكن نتاج نقاش دقيق بل خياراً قائماً على الاقتناع . حربٌ خاض غمارها "المقرر" الكبير الذي يميل الى تبسيط الامور على الطريقة المانوية واعانه عليها مجموعة من المحافظين الجدد المؤيدين له داخل الادارة الاميركية. وبحسب قول هاس فان الابطال الزائفين.. فضلاً عن بوش الصغير.. هم نائب الرئيس ديك تشيني ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد ونائب وزير الدفاع بول وولفويتز وبول بريمر الذي ترأس سلطة الائتلاف المؤقتة في بغداد.

والإخفاق الاكبر ..بحسب رواية هاس .. هو النقص الذي اصاب عملية صنع القرار . إذ يشيرهاس مراراً وتكراراً الى ان وزارة الخارجية كانت مُهمشة (على عكس ايامها في عهد الوزير جيمس بيكر خلال الحرب العراقية الاولى) ذلك ان بوش منحها اهتماماً وعنايةً أقل. وفي اوائل عام ٢٠٠٣ ، قدم هاس بنفسه مذكرة الى باول طرح فيها البدائل الممكنة عن العمل العسكري الفوري . يقول هاس " كنت اريد ان يعلم بوش انه كان ثمة مخرج ". بيد ان المذكرة لاقت الاهمال.

وتزداد مصداقية رواية هاس من خلال اعترافه المتواضع بانه كان منفتحاً في البدء إزاء اخذ " حرب الاختيار " في الحسبان. وكما راح يقول " انا نفسي لم تعترني الشكوك " فيما يتعلق بامتلاك صدام لاسلحة الدمار الشامل المزعومة . وعلى الرغم من ان هاس كان منزعجاً من اعتباطية وسمة الاحادية الجانبية التي اتسمت بها عملية صنع القرار، الا ان هذا الانزعاج " لم يكن أساسياً ".

يُعد هذا الاعتراف الصريح، على نحو مثير للاعجاب، وثيق الصلة بالتمييز الاساسي بين الحربين الذي يؤكده هاس، وانه يستخدم هذا التمييز بوصفه عنواناً لكتابه . وكما يقول هاس فان حرب الضرورة (الحرب العراقية الاولى) هي الحرب التي تتصرف فيها الولايات المتحدة رداً على

الافعال الخارجية للدول الاخرى وتخوض فيها الحرب حينما تقرر بان هذه الافعال تهدد المصالح الحيوية للولايات المتحدة . وان حرب الاختيار، على العكس منها، هي حرب تلجأ فيها الولاي ات المتحدة الى تغير سمة بعض الدول وتبرر ذهابها الى الحرب باهدافٍ ايديولوجية واخلاقية طموحة.

الاختيار والضرورة

هنا تكمن العلة .. ان أي قرار يقتضي خوض الحرب، ما لم يكن رداً على هجومٍ تشنه دولة ما، هو ثمرة اجتهادٍ يتعلق بتعريف " الضرورة " الذي يتم رداً على حدث خارجي يُنذر بعواقب وخيمة. وكان هاس قد أيد بقوة الحرب الاولى (لأن الضرورة جاءت من غزو صدام للكويت) ولم يعارض الثانية (ومرد الامر الى التهديد المزعوم الذي تطرحه أسلحة الدمار الشامل والذي أعتقد هاس في البدء ان صدام يمتلكها فعلاً). عليه، في تلك المرحلة، عد هاس، في شهادته، ان الضرورة المتصورة تحرك كلا الحربين أكثر مما يفعله الاختيار. وقبل ان تبات معروفة نتيجة أي حربٍ، يبقى الفرق بين الضرورة والاختيارغامضاً. وفي حال لم تفرض الحرب على الولايات المتحدة عن طريق هجومٍ مباشر، يكون على صناع السياسة دائماً تقديم ا جتهاد عارض (اختيار) حول احتمال البدء بعملٍ عسكري . لذلك، تكون الكيفية التي يتخذ فيها ذلك القرار حساسة للغاية . ولا فصال في ان نزعات صناع القرار الفكرية والشخصية وكذلك ميولهم الايديولوجية تؤثر في اجتهادهم ذاك.

من الجلي انه كلما قلت العاطفة في العملية (عملية الاجتهاد) وزاد الركون الى العقل كانت النتيجة افضل. عليه، تظهر الحاجة الى التفكير ملياً ومنهجياً بالخيارات المطروحة، والى التحليل المتأني والدراسة الدقيقة للمعلومات الاستخباراتية (بضمنها التوجس خيفة إزاء كل ما هو مجهول أو غير مؤكد).. ناهيك عن إجراء تقويم د قيق جداً للتكاليف المحتملة والنتائج الدولية لقرار خوض الحرب. اخيراً وليس آخراً، ينبغي ان يتضمن قرار خوض الحرب الوضوح في تحديد اهداف تلك الحرب. فقد اثبتت الاهداف الطموحة ايديولوجياً لحرب العراق الثانية ان لها نتائج كارثية، على الضد من الاهداف الجيوبوليتكية المحددة للحرب الاولى.

وحالما تبات نتيجة أية حربٍ معروفة، يكون الفرق بين الضرورة والاختيار بسيطاً الى حدٍ مؤلم. ويشتق حكم التاريخ الواقعي السالف من مأثور بسيط : لا شيء يخفق مثل الإخفاق ولا شيء ينجح مثل النجاح . ولو ان حرب العراق الثانية لم تشمل نصراً عسكرياً سريعاً فحسب بل وتبعها إرساء لقواعد ديمقراطية عراقية مستقرة.. وراح العراقيون "المحررون" يعانقون الجنود الامريكان عرفاناً منهم بالجميل، وتحاشوا التمرد عليهم، فمن الارجح ان يُنظرحينها للحرب على انها ضرورة مسوغة حتى ان لم يتم العثور على اسلحة الدمار الشامل . وبالمقابل، لو ان حرب العراق الاولى تمخض

عنها تمرد مطول في العراق، وحال دون التدخل الاميركي، وراحت الولايات المتحدة تعمل على برنامج تهدئة الاوضاع يدوم خمسة اعوام، واثارت اضطراباً اقليمياً، فان تحرير الكويت كان سينظر له حينها على انه خيارٌ استيراتيجي خاطئ . (من نافل القول ان حقيقة عدم ظهور اياً من النتائج الحقائقية اعلاه، تعزز الافتراض القائل بان الفارق الدقيق بين الحربين كانت الدرجة التي اعتمدت فيها عمليتي صنع القرار على العقلانية المتأنية والواقعية المجربة بدقة.)

ويكون جلياً الان انه في حالة الحرب الثانية، فان الصدمة التي أصابت الأمة والتي خلفتها احداث الحادي عشر من ايلول/سبتمبر انما حفزتها حملة لإثارة الخوف العام، تغذيها اللغة الغوغائية والتحريضية عن "الفاشيين الإسلاميين" و"الجهاديين" والإرهاب الاسلامي. ناهيك عن الاشارات التي راحت تتنبأ بـ "غيوم المشروم" و"الحرب العالمية الثالثة "..اوجدت كلها مناخاً مسموماً . دفع كل ذلك مجتمعاً ديمقراطياً للموافقة (مع ملاحظة العدد الكبير من السيناتورات الديمقراطيين الذين صوتوا فعلاً لصالح الحرب) على ما رغب فيه من البدء عدد قليل فحسب من صناع القرار رفيعي المستوى. وان الرئيس نفسه ، بوصفه قائد الامة، ناقش في مرحلة ما مع رئيس الوزراء البريطاني توني بلير احتمالية اختلاق ذريعة لقرع طبول حرب * راح يؤمن بانها ضرورية.

الطريق يمرمن بغداد

تثير انطباعات هاس الكثير من التساؤلات المتعلقة باداء الولايات المتحدة خلال العقود العديدة الاخيرة في رسم الجغرافيا السياسية للشرق الاوسط . وعلى وجه الخصوص، الصراع الاسرائيلي الفلسطيني المأساوي. فلا جدل في ان نتيجة الحرب العراقية الاولى كان يمكن ان تشكل نقطة انطلاق لسياسة اميركية بناءة وحاسمة اكثر ازاء هذه المنطقة المضطربة . ولعل تزامنها مع انهيار الاتحاد ا لسوفيتي قد وسم الولايات المتحدة بصفة الرابح في الصراع الجيوسياسي والايديولوجي العالمي الطويل الا انه سلمي. ووقفت الولايات المتحدة شامخة تنعم باعجاب العالم.

---

* في لقاء جورج بوش وتوني بلير في مكتبه بالبيت الابيض في يوم ٣١ كانون الثاني /يناير من عام ٢٠٠٣ أي قبل شهرين من شن الحرب التي كان هدفها ظاهرياً نزع أسلحة الدمار الشامل من العراق، بستة من كبار مساعديهم، بمن فيهم مستشارة جورج دبليو بوش للأمن القومي كوندوليزا رايس وكبير مستشاري بلير للشؤون الخارجية ديفيد مانينغ؛ ابلغ بوش رئيس الوزراء البريطاني توني بلير في ذلك اللقاء بانه مصمم على اجتياح العراق بدون صدور قرار من الامم المتحدة وحتى لو لم يتم العثور على أية أسلحة دمار شامل .وأعرب بوش وتوني بلير عن شكوكهما بأن يتم بالفعل العثور على أية أسلحة دمار شامل في العراق. وفي الحقيقة استبد القلق ببوش الذي كان يتوجس من احتمال الإخفاق في العثور على أسلحة دمار شامل في العراق، وكان هذا التخوف يؤرقه إلى درجة أنه ناقش ثلاثة سبل لاستفزاز الرئيس العراقي السابق واقحامه في مواجهة عسكرية. واشتملت هذه الخيارات المقترحة، بحسبما قال بو ش، على تحليق طائرة "يو تو " وطائرات تجسس واستطلاع أخرى فوق العراق،على أن تصطبغ بشكل زائف بألوان هيئة الأمم المتحدة على امل اطلاق النار عليها . وأضاف بوش أنه إذا قامت القوات الجوية العراقية بمهاجمة هذه الطائرات فسوف يشكل هذا خرقاً لقرارات الأمم المتحدة، وبذا يوفر الذريعة والم سوغ لشن الحرب على العراق، أو اغتيال الرئيس العراقي السابق صدام حسين.(المترجمة)

وكما يشير هاس كانت ثمة دلائل في ذلك الوقت مفادها ان الرئيس بوش (الاب) كان مستعداً لتأكيد الدور القي ادي للولايات المتحدة بغية انهاء الصراع الاسرائيلي الفلسطيني المرير تاريخياً والمتطرف اقليمياً. وجاء مؤتمر مدريد ١٩٩١ ليكون الثمرة الاولى التي توكد عزم بوش الاب الواضح في انهاء الصراع.

وراحت الولايات المتحدة تضغط على منظمة التحرير الفلسطنية لتلين موقفها الم تعلق بالوجود الاسرائيلي . في الوقت عينه، صرح بوش الاب جهاراً عن معارضته ورفضه بناء اسرائيل المستمر للمستوطنات على الاراضي الفلسطينية. كما حث وزير خارجيته، جيمس بيكر، في خطاب كبير له امام لجنة العلاقات العامة الاميركية- الاسرائيلية (المعروفة بـ ايباك)، اسرائيل على ان " تتخلى، حالاً وللابد، عن رؤيتها غير الواقعية لاسرائيل الكبرى ".(وضع كل من هاس ودينس روس ودانيل كيرتزر* مسودة الخطاب.)

بعد الحرب بمدة وجيزة، وعلى الرغم من الضغوط التي مارسها الكونجرس الاميركي، حدق بوش الاب مُغاضباً حينما طلب رئيس الوزراء الاسرائيل ي اسحق شامير ضمانات قروض اميركية اضافية في وقتٍ يصر فيه شامير على الاستمرار ببناء المستوطنات في الضفة الغربية . بعد ذلك رفض الاسرائيليون إعادة انتخاب شامير وانتخبوا (بطل الحرب) اسحق رابين رئيساً للوزراء . وهكذا برزت بروزاً دراماتيكياً آفاق السلام . ولكن هزيمة بوش الاب الانتخابية في اواخر عام ١٩٩٢ ، مثلما يوضح ذلك هاس، قد غيرت مجرى المسعى الاميركي. كما حرم اغتيال رابين، بعد ذلك بمدة وجيزة، واشنطن من شريك جاد وشجاع في السعي وراء تحقيق السلام. وجاءت إدارة كلينتون، فكانت مترددة ولم تُقدم على القيام بفعل حازم مرة ا خرى حتى مؤتمر كامب ديفيد الثاني، الذي جاء مع اقتراب نهاية ولاية بيل كلينتون الثانية، فكان متأخراً ومرتجلاً وغير حاسمٍ.

وقد المح هاس فعلاً، على الرغم من انه كان حذراً، الى ما كان سيحبذه لو ان فرصة ثالثة كانت قد اتيحت له، في حينها، في عملية صنع السياسة في الحكومة الاميركية. فمن وجهة نظره، ان سلاماً حقيقياً يتحتم ان يقدم السلام للإسرائيليين والعدل للفلسطينيين . ومن اجل هذا المبتغى، يجادل هاس بان على الرئيس الاميركي ان يحدد صراحة في خطاب كبير له العناصر الرئيسة لسلام حقيقي يجئ من تسوية ومصالحة نهائية . لا غرو في ان اخفاق جورج دبليو بوش في القيام بذلك قد أحال "خارطة طريق" من اجل السلام كانت توصف بانها مبهمة الى خارطة طريق ذات مصير مجهول. في حين زاد تقديم بوش لرئيس الوزراء الاسرائيلي ارييل شارون امام العامة على انه

* دانيل كيرتزر سفير سابق للولايات المتحدة في اسرائيل. يعمل حالياً في مجال التدريس في جامعة برينستون. (المترجمة)

(رجل سلام) من حالة اغتراب العرب . والنتيجة كانت تعنتاً مُهلكاً على جانب كل من الاسرائيليين والفلسطينيين. وهكذا، كما ذكر هاس صراحة، اخفقت الولايات المتحدة في القيام بفعلٍ ما.

عليه، ينبغي للرئيس باراك اوباما ان يستلهم عبرة مهمة من مذكرات هاس نافذة البصيرة . فاذا ما اراد الرئيس الجديد الا يتفادى اخطاء سلفه الك بيرة في الشرق الاوسط فحسب بل وسنوات سلبية كلينتون الطويلة، فان عليه ان يتولى القيادة حقيقةً . وجرياً مع الاقرار بحقائق الامور، فان ميراث السنوات الست عشرة الخاليه يُزيد الامور تعقيداً، إذ حدث تحول دقيق في التقرب الأميركي للصراع الإسرائيلي الفلسطيني : فقد نأت الولايات المتحدة بنفسها عن ان تكون وسيطاً حقيقياً يحث الطرفين على تحقيق السلام واتخذت موقف التحيز المُبطَّن لصالح احد طرفيّ الصراع . فكان ان اصابت بذلك افاق السلام بأذى وضرركبيرين .. فقد اظهر طرفا الصراع انهما غير قادرين على التوصل الى تسوية حقيقية دون وساطة اميركية فاعلة وصريحة حقيقةً.

ومما عقد الامور اكثر، حصول التطرف الاسلامي على ارضية خصبة له بين العدد المتنامي من الفلسطينيين، واتجاه السياسة الاسرائيلية في ايامنا هذه صوب التشدد الصارم . وفي الاشهر القادمة، ربما يحاول رئيس الوزراء الاسرائيلي (القادم)* حث الولايات المتحدة لخوض حربٍ مع ايران . في الوقت عينه الذي يستمر فيه الجدل الذي يتسم بمكرٍ وخبثٍ ومؤداه ان على الفلسطينيين ان يحققوا تقدماً على الصعيد الاقتصادي قبل ان يبات بالمستطاع ان يؤخذ السلام الاسرائيلي–الفلسطيني بنظرالاعتبار . في الواقع، يرمي الجدل المتع لق بالقضية الفلسطينية الى ترك الامور على ما هي عليه بقطع النظر عن الخطر المتمثل في ان المأزق المُطول (الا وهو العنف الدوري وما يسمح به من توسعٍ قاسٍ للمستوطنات) يُسمم افاق حل الدولتين.

في ظل هذه الظروف، لا مناص من ان يؤذي استمرار السلبية الاميركية في مواجه ة الضرورة القبيحة والخيار المؤلم، مصلحة الولايات المتحدة القومية . كما ستظهر عدم الاكتراث بالفلسطينيين، ولاغرو في ان يهدد، بالنهاية، بقاء اسرائيل .في الشرق الاوسط، علّه متأخر، على الرغم من انه مازالت ثمة فرصة، في ان تظهر الولايات المتحدة الجراءة القيادية المطلوبة.

* وقت كتابة المقال قبل اجراء الانتخابات الإسرائيلية في ١٠ شباط /فبراير ٢٠٠٩ .(المترجمة)